

قصص
كندة السوادي
عندما كنا حيوانات
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

عندما كنا حيوانات


أبو عبدو البغل

عندة السوادي

عندما كنا حيوانات

قصص

سقوط حر عكس اتجاه المطر

يوم ممطر آخر، ويملأ الوحل هذا العالم. وحل وسط هذه الجزمات العالية، بضاعة المطر الرائجة في حوانيت البالة، الثياب والأحذية التي منحتها لنا سلالات الماء والعشب الطازج، يصاب ركاب السرفيس بالزكامأيام المطر ونسمع جوقة السعال في قبر المواصلات العامة،سعال وبلغم متورم كما لو كان نباحاً جماعياً متعدد الأصوات. يهطل المطر، تثقل خطوات الناس بفعل الرطوبة، لكن هذا الثقل بالذات ما يجعلني أومن أن معجزة الطبيعة هذه تحدث فقط على زجاج سيارة أبي،الماء سقط على السلالم القصيرة، وها أنا أتلقى جافة، كخشبة طافية، الخبر الحزين.. لقد قُتل رجل تحبينه وفُقدت جثته في العراء الجاف أيضاً. نظرة أخرى إلى النافذة أمامي.. المطر لا يهطل هنا أو على عينيه المفتوحتين بشهقة إلى الأعلى.وقعت المعجزة على بيوت الفقراء كما لو كانوا بحاجة إليها، وليس من اقتراحات تلوح بالأفق لمعجزات إضافية عن نيران تخلق بالمجان. في بيته كان ينام عارياً على سرير رطب، أجلس في الزاوية أراقب تفسخ الجدران: قطعة على شكل مثلث من الدهان الأزرق تتمزق خفيةً عنه بالقرب من كتفي الأيمن،أمد طرف إصبع فتقع على الرقبة مع أنغام المطر المتصاعدة في الخارج.

المطر، لم أره.. لكني استعدته كله تحت شمس صيف ما،أمطار استوائية قسمت الكرة الأرضية حينها إلى المنتصف.. صحرائي أنا ومياه الغائبين.. حينئذ دخلت في السبع سنوات عجاف تليها سبع سنوات جفاف.. وهكذا.

في منتصف آخر ليلة شتوية حارة أتقلب على رأس الشمال أسعل سعالاً ديكياً، رأس اليمين يكون بالقرب من الحائط عادةً، أسعل كما جراء سوداء ضاعت في العتمة، في اليوم التالي سيخرج كل القيح رماداً يشتعل، نظراً لعدد السجائر التي أدخنها كل يوم، ما الحل؟!.. لن أبحث طويلاً، فقط أتأمل الماء في الخارج، أفتح زجاجة النبيذ عند الساعة الرابعة والنصف، أخط على البشرة بأظافر لم تشذب البتةممراتٍ بيضاء،الألوان السمراء خلقت جافةبالطبع، لكن في الداخل خطر لي كتابة أسماء العشاق كلهم، و سرعان ما شربتها رمال البشرة المتحركة. اسمي في المعجم: القطعة من الجبل.. عند الساعة السادسة والنصف ركنت زجاجة نبيذ فارغة إلى الأسفل.

قبل المطر بلحظاتكان عجوز بشفاه متشققة يبلل بصعوبة ورقة تبغ (لف) يجلس تحت شمس الظهيرةضمن سهل يبدو مترامي الأطراف.. ثم طفل يمشي خلف بضعة خرفان وامرأة على وشك الولادة حين تفجر رحم السماء وهطل الـ... ماذا يجب أن ندعوه هنا؟!.. في جغرافيا حارقة كالتي هناشيئاً ما يجب أن يقترب من شراسة جو الشمال وقسوة البدو الرحل... سقط الفجور على الأرض.. صرخ رجل شق ثوبه بوجه الرعيد بالتزامن مع

صرخة المرأة التي أسمت بنتاً سوداء ونحيلة للغاية: مزنة.

في اتجاه معاكس لفوضى الخيام المتطايرة وهلع القبيلة ثبّت بدوي أعمى بساطاً وصندوقاً خشبياً عتيقاً، عدة أغطية ووسائد ثم ثبّت صبياً صغيراً على ظهر ناقته، مشت زوجته وطفل آخر خلفه، وغنت المرأة: على كل الدروب رياح سوداء.. كما لو كانت تغنّيللطوارق في المغرب..

السهل غادره الرجل، والأنهار استعادت منسوبها القلق، لكنالتوجس أصبح من صفات الغبار الذي مازال يلهو إلى يومنا هذا، أما الوادي بالقرب من الخيام فقد اعتادت العشيرة على التبرز فيه، أعوام تمضي يجف فيها الخراء على مهل..أحدهم يكبر أنفه حين تمطر. يقول لي هذه الأيام: اللعنة،متى ينتهي هذا الاحتباس الحراري؟!.. صبية جميلة معي في العمل ترتدي فساتين شفافة تقول: اشتقت للمطر.. شاعر توقفت قصيدته عند المنتصف أيضاً يقول بكثير من الأسى المصطنع: متى تمطر الغيوم العاهرة؟!..

الأخاديد حول عيني جدتي أصدق من هذا الهراء، ولا شيء في عيون من أحبهم يشبه الماء أو المطر..

على طرق مقفرة سأمشي وحيدة، أشرب بهدوء فودكا مثلجة في عبوات خضراء أو زرقاء، أحقّق شهية الكثيرين حين أنزف سراً هكذا، أخونسلالات الصحراء التي أنتمي إليها، على نية الاستسقاء، وطقوس المياه.

ذات مرة انهار سد مأرب وطردت المياه قبائل كثيرة شر

طردة إلى أرض السواد ، لماذا سأكترث إذاً بالمطر؟!..

فكرت بشكل معطفي حين يتبلل، هطول الكلمات في قصيدة وهطوله علي حين يجيء في يوم ماعكس اتجاهات المناخ،يجيء إلي بكامل كربلاء روحه كما يستحق انتظاري و كما لو كان هو حفيد الحسين المفقود في أرض الجنوب، سأجلس على مقعد في حديقة عامة حين تمطر ، أنظر إلى فوق، خُيّل لي حينها أني أنظّم مظاهرة ضد السماء، يحملني أحد الرفاق فأهتف: يسقط المطر.. تبكي الجموع ورائي: يسقط، يسقط.. مهلاً، لا يا جماعة، أقصد: يسقط..

ليس المكان ثمة ما يصلح للحب

ليست الأمكنة التي مررت بها.. هذا اللسان الممتد إليك وأنت تقف في الجهة المعاكسة تماماًإسمنت في إسفلت، أنت الوحيد الذي يحسبه عيون من أحببت تضحك وتذرف دمعة جراء نكاتك السخيفة، أنتفقط من يحسبهشريط جوربها الشفاف حين هبطت وسط الزحمة بذاك الفستان القصيرفي أكثر أحياء دمشق تطرفاً، ياللحماقة، لا تشغلني في هذه اللحظة حماقة الفتاة التياتصلت بك كل ليلة حين كنت في (دبي)كما تقول، أضع الكأس من يدي على طرف الطاولة في البار القديم، وأفكر ما إذا كان هذا المكان يصلح للحب؟!..

. هل كنتم تسهرون في هذا المكان حقاً؟!..

. نعم على الأغلب،لماذا؟!.. بماذا تفكرين؟!..

المكان يصلح للحب بالرغم من اليأس العام، هذا ما أفكر به حين تطرح هذا السؤال بشكل مفاجئ عادةً،لو وضعت ستارة ذهبية هناك،وسمكة خضراء في إناء على شكل حوت يبتسم،هذا يتلاءم مع الأرض التي فرشتها بالحب. أبعد هذه الطاولات جانباً وضع المزيد من الوسائد الوثيرة،افتح حقيبة الخيبات الثقيلة وطلّع طيف تلك الأنثى، هكذا تنتقم مرة واحدة من خيبة واحدة في

كأس واحد واحتمالات كثيرة للحلم، انت الذي ستقضي ليلتك وحيداً على كرسي واحد في بار فرغ للتو من رواده.

الاقتراحات التي لم أشارك بها الصديق الذي يظن أنه فارسالحركة الرومانطيقية في أوروباالقرن التاسع عشر ينافسه "ووردزورث" في قصائد لا تقوى على الإطاحة بقلبه مهما حصل،هي ما تجعلني أفكر بممرات باب توما وأنا أغادر مسرعةً إلى البيت،الاقتراحات الفخمة هذه لا تناسبني، وتلك الأزقة لا تصلح للحب كما هو شائع . عمَّ يتحدثون؟!.. إنها الأزقة التي بكى فيهامحي الدين بن عربي ربما وهو يبحث عن ناره الضائعة، لا تصلح سوى لقول الحقيقة.

السرير في غرفتي هو الحقيقة أيضاً، والشاهد على دوامة الفودكا مع البيرة المكسيكية في رأسي، أرغب بأن أبعث برسالة إلى أحد ما، سريري هو الحقيقة الخالدة.ولا أفعل بالطبع، لكني أقطر شيئاً فشيئاً كما هو جدير بكحول صرف أن يفعل بالنهاية. إلى داخل حلزونات الذاكرة: حافة الرصيف بين الشجيرات أمام باص مليئ براقصات الباليه الصغيرات اللواتي يتجهن إلى الدرس الأول هو ما يناسب تلك القبلة، أيضاً كافتيريا رخيصة تحت الأرض، غرفة البوفيه بحجم متر ونصف لا أكثر، حديقة الطلائع تحت سماء رمادية تحتقن ولا تمطر رحمةً بكيس السندويتشات الساخنة، حديقة كلية طب الأسنان أيضاً، أراها اليوم سريراً أحمر!.. حديقة خضراءأم سرير أحمر؟!.. لا أعلم حتى هذه اللحظة!..غرفة الملابس في المسرح القومي، حمام بيت

أحد الأصدقاء ما يناسب تلك القبلة!..

في الصباح أستعيدفي ذهني، بينما أتوجه مباشرةً إلى العمل، مشهد الشاب الذي أعرفهيقف عكس الشارع، يغمض عينيه ولا يتزحزح أبداً، ثم تمر شاحنة يخرج منها عمال تصليح الطرق يغرسون بالقرب منه لافتة تقول: عذراً للإزعاج،تحويلة طرقية.

حسناً تستهويني هذه اللعبة الذهنية التي اخترعت، أقصد التسلل إلى غرف نوم الذاكرة والعبث بأثاث الحنين بعض الشيء،غرفة الملابس في المسرح تخبرني أني أجمل من أزياء مسرحية (حكاية جيسون وميديا)كلها.

الآن أنت من ترتدين تلك الفساتين الجميلة عوضاً عني، أنا أقف عند الباب، أدخن سيجارة، وهذه المسرحية بالذات هي ما سأنبشه من أرشيف التلفزيونحين يتسنى لي ذلك طبعاً..

والكافتيريا في البرامكة سنرتادها سويةً، نجلس على إحدى الطاولات، لكن هذه المرة ستكون أيدينا فوق، واضحة وتظهر للعيان.

غرفة المكتبة في الجريدة التي أعمل بهاتناسب أكثر ظهيرة قلقةآتمدد تحت رفوف الكتب، أتأمل الأحذية العسلية جينةً وذهاباً، لكن لا.. لا ، هذا المكان لن يصلح للحب.

حمام صديقك الرائع نظيف، ومناشف الوجه على ما يرام، لأني ما زلت أدردش مع أم الشاب، لكن ماذا لوقلبنا قوانين نيوتن

بشأن السرعة والحركة كانت ستنسف تلك الغيبوبة بكل تأكيد، وبمعادلة رياضية بسيطة كنت سندخل أولاً إلى الغرفة بحجم عبوة الغاز المنزلي لتغلي تلك القهوة، والآن غالباً ما أقدم فنجان القهوة ذاك إلى نفسي كمكافأة ذاتية في سنوات العقاب الطويلة.

الشاب الذي يعاكس الطرق يدير رأسه أخيراً، إلى اليمين يجد فتاة ترتدي معطفاً أبيضاً وتمنح ظهرها لشجرة،ينظر إلى الشمال يرى عجوزاً يغطي عينيه بوشاح مهترئ أمام أربعة عشر بناية..

بالطبع ليست الأمكنة، وليست الأزمنة، ربما هو الأسى..

ماذا تفعل زجاجة خضراء في حذاء صيفي؟!..

أريد أن أتغير، وسأفعل بعد الساعة الحادية عشر صباحاً، ستنتهي نشرة الأخبار يوماً ما، حينها فقط سأتغير، كأن استيقظ مبكراً، أرتدي سترتي بالمقلوب ثم أخرج إلى الشارع دون أن أكترث هذه المرة لرأي بياع الخضرة في شخصيتي، ينقد قصيدة النثر وهو يقطع شروش البصل العالقة في الصندوق.. أتفق أن القصيدة تقع في الفراغ!.. وهنا ثمة قصيدة تطفئ سيجارتها، تتجه نحو أي فراغ تجده ثم تقع.. بطاطا كم كيلو؟!..

نيتشه يزعجكِ كثيراً هذه الأيام، يرمق المؤخرة، الله يلعن لحية أبوه، هل الكوسا للمحشي يا آنسة؟!.. لن أكترث لهذا التحرش، هذا نقاش حضاري بيننا على سبيل التغيير، سأصفع عامود الكهرباء يقف في وجهي، ماذا يريد؟!.. ومن أنتم معشر العواميد اليابسة، خمس ليرات في جيبي ثمن التذكرة إلى مدينة الضباب: دمشق.. لندن لن تحتكر الضباب بعد اليوم وهذا تغير ملموس في لؤم الطقس وعلى سبيل التغيير، أعمل منذ اليوم في جريدة "التايمز"لكن كم هي الساعة الآن؟!.. لا يهم، ما يهم فعلاً أن ثمة وقتاً مناسباً وساعة حاسمة!.. لن أقوم بعد زجاجات البيرة

تحت السرير منذ أن احتفلنا سويةً في الشهر الماضي، لكن على المكتبة صندل صيفي ملون في داخله زجاجة خضراء كنوع من الإصلاحات، لن أثمل هذه الليلة قبل اثني عشر قمراً مروا على زفافي إليك يا خوف، وها نحن نمارس الحب بصمت معبر حقاً!..

مرادف التغيير..

سأقف في منتصف ساحة الأمويين لأصرخ: هيييييييي، نحن ربات الزيتون يا هذا، ونستطيع أن نملأ رئتيك بالبساتين إذا كنت صادقاً، لن أهتم بعد اليوم لشجار أولاد الحاوية، بل سنقلب هذه الحاوية بالذات على باب دار الأوبرا إذا استمر الصبية في الصراخ...

في التاكسي يخبئ السائق ألف ليرة تحت لسانه، أضع أنا عشر ليرات تحت ضرسي، وسنتشاجر. أترجل من السيارة كقذيفة آر بي جي ساخطة وأخلع الرجل عدة لكمات على وجهه تماماً. وهذا كله من أجل التغيير فقط. يسقط أرضاً، (أفرشخ) فوقه وأحطم له أنفه.

مج..مجن.. مجنن..، وماذا كنت تريد أن تقول؟!..

يخرج رأس القط من التاكسي: على مهلك على الزلمة!.. يخرج من جيبه ورقة.. حسناً، لن يقولها، لكن لماذا؟!.. مرادف قوي (للي بالي بالك) امممم.. نعم، فعلاً لن يستطيع النطق بها.

هذا الكلام لم (يخرط) مشطي، نتجه سويةً إلى شرطي المرور، أشعل له سيجارة: مللت من حياتي يا أبا صطيف، هل

لـديك أولاد؟!.. خمسـة؟!.. تعجبنـي طاقتـك الصـناعية، أريـد أن أتغيـر. مـاذا؟!.. لا ، لا.. لـم تفهـم علـي. لا أقصـد تسـريحة شـعري. ماذا عنك؟!..

مـن ليلـي يخـرج رأس القـط ميلودرامـا ليليـة أعيشـها وحـدي بصـمت لـيس معبّـراً!.. يلحـس أسـفل قـدمي، حبيبـي أنـت نـاعم وورومانسي هذه الليلة!.. يخرج مـن الغرفـة، يـدخل إلـى السـرير قطـاً أشـقر. ألـم تكـن شـبحاً مـن لحظـات؟!.. مـن تحسـبين نفسـك يـا حيوانة؟!.. (اطلع برة) أنا حورر..حررر..حح.. إلى غرفته الرطبة يشـدني مـن شـعري، يـأمرني بـالجلوس علـى ركبتـي، أحـذّره بأنـه يلعـب معـي لعبـة سـخيفة، وأنـا لسـت جبانـة لكـن أمـي رمتنـي علـى الواقـف، يصـفعني رأس القـط، يضـع حـذاءه الصـغير فـي فمـي، يمـد كفه من أسفل الكنزة..

لا ، أرجـوك، إلا هـذا.. وطـز بـالحوووور ، يختنـق الـدم فـي الحنجـرة، اللسـان الطويـل يصـفر كورقـة خريـف، يركـع الهـواء مـذعوراً، ثـم نعقـد هـذه الصـفقة يحـتفظ بـ(السـوتيان)ويناولني الكنزة.

على أي أوتستراد دولي سنلهث معاً؟!..

يختـار الشـبح أن يركـض فـي مقدمـة رجـال (الأديداس)، يضـرب حزامـه علـى الأرض هيـا.. هيـا..، بينمـا أقـف لأفـتح حـواراً حضـارياً كمـا يفتـرض مـع آخـر: عنـدي سـؤال، لـم تركضـون بسـرعة فـوق الجثث؟!..

الرجل (الجنتل) دوماً . رأس القط يدفع أجرتي بالسرفيس، أرغب بتوجيه نصيحة إليه: "الجنتلة" تحتاج إلى طقم (توكسيدو) وسيارة أجرة على الاقل!.. فقد العدة للأسف، لكنه لم يفقد النباهة: أنتقرأين الرأس الأصلع الذي أمامنا.. انتبهي، ممنوع قراءة الرؤوس الحية، لكن هذا الرأس بالذات ميت منذ أشهر. يخرج من تحت إبطه جثة محروقة وورقة بيضاء، جميع من في السرفيس نظر إلى الجثة بيننا واتفقوا على أن عين المقتول بنصف إغماضة، رأس القط يكتب على ورقته:اقتراح إلى الهيئة العليا، الروح البشرية تطلع إلى فوق على شكل عصفور مبلول يتعثر في الطيران.. يرجى الصيد والانتباه.. هذا مرادف قوي للكلمة.

أنت سافل، لماذا تكتب هذا؟!.. الراديو يقول هذا.أنت حقير والراديو يكذب عليك.

كتعويض عاطفي للأحداث الأخيرة أقضي سهرتي في الباب الشرقي بينما أبحث في ذاكرتي عن أبواب غربية قريبة من المكان، لأقدم لهم أوراقي الثبوتية كلها..

الفودكا مرة يا الله.أيها النادل هات لي ليمون أكثر لو سمحت. لا يوجد ليمون.ناولني بندورة حورانية إذن.

على طريق المطار يسبقني رجال (الأديداس) بمئات الأمتار، فأتمشى بهدوء لأنهم أغلقوا المعابر من خلفهم.

ممنوع الصعود يا آنسة، الهوية من فضلك، من أنتم؟!..!.. من أنتم؟!.. لا أحد يجيب.

يا جماعة، يا جماعة، أنتم فهمتموني خطأً، أنا بنت من الأمازون!.. يصفعني أحدهم: وتهتفين بالكلمة يا فاجرة!.. الأمازون مرادف شرس!..

رصيف الشارع العريض، أغفو على الحقيبة. لكن رأس القط يفتح كفه بشكل مفاجئليذيع أغنية: No woman.. no cry ..

رأس القط ينهار بالبكاء، يحاول أن ينام لكنه يعجز. حسناً، لماذا تبكي الآن؟!..

لا شيء، أشعر أن في داخلي امرأة.

الـونـس

زوجهـا كـان رجلاًطويـل القامـة، أسـمر ومليئـاً بـالعنفوان، ساقوه إلى الحرب، لم يعد أبداً. لكنها كانتفي لياليها الموحشة تشكره سراً لأنه ترك لها ولداًيشغلها عن التفكير بوفاته ، على مدى سنوات أصاب المرأة هاجس أن يكبر هذا الطفل،راحت تُشعل شموعها عند كل الأضرحة التي كانت تراها في الطريق بين السوق والبيت، ليصبح رجلاً ناضجاًيساعدها في مكاسرة الحياة، زوجت طفلها في عمر العشرين،بعد سنوات كان يسمع طبول الدم من كل مكان ، ذهب كالسائر في نومه،ثم . ودون أن ينظر إلى

الخلف ولو نظرة واحدة . سحبهالموت إلى نعاجه. شكرت المرأة ربها مرة ثانية لهذا الحفيد الأسمر الذي تركه الابن وراءه، فهيتقضي ما تبقى من عمرها في العناية به ويؤنسها، كما أنه شقي ولا يرضى أن يذلّه أحد. في آخر زيارة للعجوز أم محمد كانت تضع ثلاث صور على الحائط، كانت ستبدو لرجل واحد لولا الاختلاف في تسريحة الشعر، وضعت صينية الشاي أمامنا ثم ابتسمت: الحمد لله أنهم تركوا لي صورهم قبل أن يغادروا، فهاهم يؤنسونني في آخر هذا العمر ..

نصف استفاقة وفي الحلم وهكذا

الشمس كانت تُطلع خصلات من مقدمة الرأس، وتتمرد على حجاب قدرت مقاساته آلهة تعيش على مثل هذا النوع من الأعمال اليدوية. الشمس ليست سوى قرصة على الخد حتى أقفز من سريري كل صباح: طفلة صغيرة في قميص نومها البريء إلى ما بعد الساعة الثانية ظهراً، لكن الصبي الذي نام كيفما اتفق البارحة سيحتج لسنوات عديدة على مثل هذا الرعب غير محمود العواقب، وكما يفعل الأطفال أندس في ظهره كطعنة مراوغة على طول الأيام.

يفتح عينيه متفاجئاً: ماذا تريدين؟!..

أريد الدراجة فقط.

يسأل بسذاجة واضحة: لماذا؟!..

حسناً، لا فرق، حلمت أنك مت أو أن دراجتي تعطلتهذاالصباح.

في ساعات طويلة قبل كل صباح، يرافقها القمر الذي يكاديشبه صحن لبن مصفى!.. تتحدث الصبية التي أصبحت تملك سيارة خاصة

إلى شاب وسيم يجلس على حافة (البلكون) يراقب دورانعينيها البنيتين ثم يضحك فجأة: لبن مصفى!..

نعم، لبن مصفى. لماذا يحصل القمر على مديح فائض سواء في الجاهلية الثائرة، أو من سأم الخلفاء على أرائك كحلية حيث سجن ساعي البريد في أول تمرد تاريخي على أوامر الحاكم بأمر الله، أومن دوخة بدوي بين الكثبان ليس لديه شيء يخسرهفكتب قصيدة عن القمر.

يضحك الشاب الوسيم على هذه الفلسفة اللذيذة، بينما يذكر الطفل الآخر دوران الدراجة في الساحة الكبيرة وارفة الظل بالحي البعيد في المدينة، كان قُدِّر له هذا. لقد استسلم لهذه القناعة، الطفلة التي دارت في دراجته ذاك الصباح، البنت السمراء ذات الشعر المنكوش، تعثرت قدماها بين العجلات، لن يجدها في المدينة التي بلعت الجميع.

في طريقها إلى البيت كانت تفكر بالطريق الشاسع إلى الضواحي الجنوبيةالذي يفسح مجالاً للرؤية، هذا ما ستضعه في حسابات جغرافية جاءت لصالحها أخيراً، إذ لطالما حلمت أنها وقعت سهواً من فم اللقلق مباشرةً إلى هذا البلد،تستمعبخشوع حقيقي هذه المرة إلى أغنية عبد الحليم حافظ على الراديو: (النيل والليل والشوق والميل.. بعتولي وجيت أسأل عنك،أشتقت إليك.. وحشتني عينيك مش عارف أهرب فين منك).

كعزاء للنفس تشكر سراً، الإذاعة المحترمة التي تبث

أغانيالقدماء، ولا تنسىأن تتأمل نعمة السكن في الضواحي فأهل العاصمة لا يمنحون مثل هذه الأحلام في طريقهم. هكذا قال معظمهم.

أنت من سيبقى في العراء مدة أطول هذه المرة، تخبرنا المرأة الأربعينية التي تعاني من قلة النوم، نعم هذا هو يا صديقي الأرق، لكن ثمة من باع نفسه لليل، ولانعلمعلى وجه الدقة ما إذا كان قد ندم فعلاً علىإشراقات دسمة ضيعته. هي لم تندم على الأمور التي حدثت في حياتها، كانت لحظة حاسمة حين قررت إنهاء هذا الزواج. آخرون عبؤوا الكحول في جيوبهم ومضوا إلى مصائر معتادة كل مساء وكعادتهم بالطبع!..

صبي وحيد ذهبت شلته إلى حارة بعيدة كان يطلق مفرقعات صوتية في الليل دون أن يفلسف هذه المحاولة، ثم أصاب الظلام بلا تشاوف وبصمت بليغ، وبعد أن انتهى التفت لعله يرى أحداً يشهد ما فعل في نصف استفاقة أخرى.

قطرات الماء تنسكب من جديلة أختي وقد هربت من السيارة التي توصلنا إلى المدرسة كل صباح، خلف الشمس الباردة فيأولالطريق صباحاً أخذ هيئة نزيف الماء في الذاكرة، البطة المراهقةالتي ستصرخ كثيراً في وجهي:انس أمر المقلمة وارتد حذاءك، هيا. من يومها وأنا أضيّع مثلث أضلاع العودة إلى أرض الواقع. في حلمي جاءت هي سمراء وغاضبة على الدوام بمناخير الثور تغرس رأسي في ثدييها كما لو كان قلادة ناعمة تحكي لي أحاجي لا أجد لها حلاً. فأفايضها على الفور بحكايات مجنونة

توقعها من السرير ضحكاً، ثم تسرق مني الليرات لأركض خلف أختي عكس اتجاهات الشمس.

أثناء الركض الليلي تتناثر من حذاء صديقي شذرات الفضة، وأنتِ ماذا كنتِ تفعلين؟!.. تسأل أمي وهي تضع الفناجين في الصينية. لا أذكر يا أمي.

حسناً الفضة هي فض الكرب والهموم يا ابنتي، نتجاهل عمداً التعريج على أحلام لا تمت بصلة للأصدقاء والمعارف وصاحب عربة الخضرة!.. تشرب القهوة. أشرب من سيجارتي وأنسى التفاصيل الإضافية للحلم، و التي تذكرتها للتو، مامن أنثى تفسر الأحلام بأمانة كالأمهات.

في يقظة مسائية تشتعل ذاكرة البنت صاحبة الدراجة، وعلى موائد الضوء الخفيف وضجيج الأغاني الهادئة وكؤوس خمرتمتلئ بفعل فاعل وأخرى تنقص حسب زخم الحادثة التي تستعيدها الآن، تراقب صحن (المسبحة) التي هي شمس غائمة في الزيت كما قررت!.. ستطلب من الرجل إلى جانبها أن يضعه في مكان آخر، ثم ستلغي هذا الحمّص المسحوق من قائمة المشهيات في وجبة تفشل في ترتيب ذاتها على الدوام.

تفتح عيناها صباحاً، تجد رجلاً من سهرة البارحة في سريرها، هذه استفاقة تشبه رجلاً ثابت المزاج كهذا الرجل الذي يغفو كما لوكان فرعوناً محنطاً. قلت له مرات عديدة إني خرجت إلى الدنيا في الساعة السابعة صباحاً في أول يوم تشريني بطيءتلك

السنة، كما قلت له: بقيت نائمة طوال ذلك الأسبوع، ثم ضحكت في مساء اليوم الثالث عشر فظن أبي أن هذه معجزة من نوع ما والتقط الضحكة في صورة فوتوغرافية. السابعة توقيت موتي اليومي!..كما أضفت: لذا دعني أستيقظ وحيدةوعلى مهل.

الأصابع حول الخاصرة تعيدها إلى صباح إجباري تتزحلق نحوالمؤخرة.. مع دخول الشمس إلى الشرفة تزين وإياهإفطاراً كلاسيكياً على المائدة.

. ماذا تريدين الآن؟!..

تنتبه إلى صحن اللبن المصفى بين يديه، الإناء الذي وضعت هي فيه الملاعق والشوك والسكاكين على المجلى، يشبه تلك المقلمة الضائعة.

بوحي من أجواء البيت الدافئ تقول: مازلت.. وهكذا. نعم أريد. كأن أغفو إلى جانبك بوضعيةالملاعق الصغيرة.

في الحلم تخرج الطفلة صباحاً إلى خلف البيت، وعلى الحائط تكتب بقلم رصاص، أريد أن أكتشف قارة مليئة بالطيور كما كريستوف كولومبوس، ثم تعود إلى نومها.

في استيقاظ آخر صعدتشجرة التوت وملأت حتى سروالها الداخلي بالتوت البري، لكن يخونها الهبوطمبكراً كإنذار سافر إلى ما سيحدث حين تكبر، وبذراع تتأرجح في الفراغ ورائحة السكر المتصاعدة تسمع أحدهم يهمس في المستشفى:

طفلة تستيقظ مسعورة على الطيران.

جدل مائل

تقول حرية كما لو أنها تقول ماء، يصف فتاته لأحد الثوار المنهك أمام شاشة (لابتوبه). اسمع: هل لديها حساب؟!.. اعطني الاسم فقط!.. لكنه يتراجع، فحماس زميله لا يُطمئن البتة، لا عليك، انسَ الأمر، بكل الأحوال لست واثقاً منها!.. ينظر مستغرباً ثم يُنزل مربع (الشات) إلى الأسفل. ماذا تقصد؟!.. لديها علاقات مع عدة رجال. زهرت عيناه ثم ابتسم: واوو!.. ماذا؟!.. لا، أساءت الفهم يا صديقي، ليس جنسياً يا تافه، لا أثق بميولها الثورية يا رجل!.. يخيب أمل الثاني فيعود إلى مطحنة (الشات) مرة ثانية.

مابك؟!.. ألم يعجبك الحديث؟!.. ألا يحدث أن تتوقف عند ميول البنت قبل أن تخوض أي علاقة معها؟!.. لم أتوقع أنك متخلف إلى هذه الدرجة يا صديقي، هذه الفتاة ستصبح حبيبتي، سنخرج وندخل سويةً، سنلتقي بأفراد من تنسيقيات أخرى، نجلس في غرفة صغيرة وندخن بشراهة ونتناقش بأسرار مهمة.

لحظة، لحظة.. يقول له الثاني، ثم يكتب على سبع نوافذ (شات) دفعة واحدة: لحظة لو سمحت..

كنت تقول ميول..

الأول: نعم، ميولها وأشياء أخرى كالتزامها بـ ...

الثاني: ميولها الجنسية تقصد؟!.. قل لي: هل ترغب بالنساء أيضاً..

الأول: أعتقد أنك كلما سمعت هذه المفردة بالذات "ميول" تقفز إلى عالم آخر.. حسناً، دعك من هذا كله، انس الموضوع. ماذا هناك، ماذا فعلتم حين كنت أنا في حمص؟!..

الثاني: استغرق الشيء أكثر من ليلتين ، تخيل، ذهبت إلى سوق البحصة في السابعة صباحاً، لو تعرف بأية تهلكة كنت سأرمي نفسي، كانت مخاطرة حقاً، يا رجل دخلت أزقة وخرجت من أزقة حتى أتخلص من البائع.

لماذا؟!.. هل كان يلاحقك؟!..

لا يا رجل، لكن نظراته لم تكن مريحة أبداً!..

والنتيجة، ماذا؟!.. قل لي: هل فشلتم يا حمقى!..

ليس تماماً.. سيشتري لنا يامن البرنامج من محل الكومبيوتر بالقرب من بيت أخته في دويلعة.

الأول: اوووف، الحمد الله، وقف قلبي يا رجل!.. لا أريد لهؤلاء الأوغاد أن ينشروها في صفحتهم قبلنا، بالرغم من أن لديهم - أعترف يا صديقي . كادراً فعالاً، وحين كان يخطئ الآخرون كانوا يضعون الأرقام بالدقة حتى قبل ساعة من الحدث!.. لا

نستخف بهم يا صديقي، هؤلاء لديهم ميول واضحةفي تحديد مناطقهم..

الثاني ينُزل شاشة (الشات) مرة أخرى مقاطعاً الأول: كنت تقول إن لديهم انترنت أسرع منا، نعم وغير ذلك؟!...

الثاني: لحظة.. كنت تقول أيضاً لديهم ميول واضحة.. آه أهاااااااااا الآن فهمت، كنت تقصد أنك لا تثق بالبنت النحيلة التي تضع نظارات طبية؟!.. معك حق فعلاً صديقي، إنها ستعرف عنا كل شيء وستستخدم نفس مصادرنا وليس بعيداً أن تجلس على كرسيي هذا وتُحمّل مقاطع الفيديو على (لابتوبي) أيضاً.. (أي ما فشرت)..

الأول:لكن، ماعلاقة البنت التي أريد تطبيقها في هذا كله؟!..

الثاني: أنت الذي أخبرتني أن لدبهم ميولاً واضحة.. وهذه البنت لديها ميول أيضاً، من الطبيعي يا حمار أن يكونوا أصدقاء.

يصمت الأول ويمج نفساً طويلاً من آخر سيجارته متجاهلاً مناقشة صديقه: اتركنا من البنات الآن. يقترب من (لابتوبه): انقر على الصفحة التي أنشأها الشباب من أجلي حين كنت معتقلاً..!.. الثاني: لماذا؟!.. أنت الآن حرٌ وحرٌ.. ويتابعالتنقل بين موقع "العرب لديهم موهبة" وصفحات الحرية على النت...

كثافة حبة الفستق

مربعات الموتفي المدينة

أختنق، أعلم أني سأُذعر حتى الموت بعد دقيقة واحدة بالرغم من هواء الشارع العليل في رئتي،لكن هل هذا هو الهواء العليل؟!..لماذا لا أتعرف علىأحد المارة؟!.. هكذا أضمن مرافقة رجل شجاع في المصعد إلى الطابق الرابع، خلف الباب الكتيم لا شيء يشي بالحياة البشرية على ما أعتقد، وإحدى جدران مربع الموت على هيئة قفص.. بعد نصف دقيقة من الآن سأُذعر من فكرة أني لم أشحن موبايلي جيداً. مبتسماً فتحلها باب الحديد الكبير: مرحبا،ونفثت بوجهه كل هواء الشارع العليلسابقاً،وكما افترضت!..

فيالانتظار

هذه ليست خزانة ملابسي، هذه أكون أو لا أكون.. إنها معضلة الوجود. أقف تحت ثدييها العظيمتين كما وقفت الأرامل السوداء يوماً، وكسائر حشرات التاريخ أحاول صفع خدها. إن لي جسداً من بابل وأردافاً خاصة من أوروك يا حمقاء، عبثاً أجلس على أمعاء وحش الألوان الرطبة، ليس عبثاً أن تكون خزانة ملابسي في الحائط.

وأجرب من جديد كنزة حمراء فضفاضة لجلسات البيرة بعد انتهاء الدوام، وأخرى زرقاء حين لا تدوس جحافل الأحلام على بشرتي خلال المغادرة.

لماذا أشتري كل هذه الثياب أصلاً؟!.. وكنوع من تحدي الذات تخيلت أني أمضي إلى الدوام عارية، أجلس خلف المكتب وأضع ساقاً على ساق بينما أتأمل ملياً شحاطة الحمام السعيد..

الاسمنت الخاطئ..

دمشق يجب أن يكون نصفها ماء، إلى حد الركبة مثلاً. ستعتاد بعد فترة على شعرك المبلول جذاباً ربما، من يعلم؟!..!.. القبلات الخاطئة على الطريق ستمحى بانسياب بالغ ولا تترك أثراً، يبقى الأمر طبيعياً اذا ما قذفت بمياهك إلى وجوه الآخرين، وستصعد الدرج على إيقاع المحيط الهادئ كل صباح، لكن نسمةً باردة ومخادعة ستفسد الملفات الخاصة على سطح الكومبيوتر."هكذا يصفرّ قلبي،يصفرّ، وتخضرّ الصحراء".

حروب الجسد الصغيرة

رأس اللسان يتجه نحو أقصى اليمين في الفم، يقف ولا يتحرك، فيجمد كل شيء، ما الذي ترغب بتذوقه تحت الضرس مباشرةً؟!..لن تعلم بهذه الفكرة، هكذا قررت، لأن كل شيء

تقريباً قد تجمّد ولا أقدر على أي فعل للتمويه،القلب الذي يخفق بشدة سيحلق بعيداً خلف حلمته البنية، بالرغم من إيقاع النفس المنضبط كجنرال سابق في جيش العدو، إشارات الاستفهام المالحة لا محل لها، لذلك لم يفتح الجفن الصابر. بردت البشرة، هل لاحظت؟!.. وهناك سيل من اللعاب ينتظر تصريح الدخول، رأس اللسان يتحرك، ينتقل فجأةً إلى الضفة المقابلة، وتعود الحياة إلى كل شيء تقريباً،نعم.. إلى هذه الدرجة أخشى أن تنسحب مني...

كما ليمونة واحدة

ما الذي يجمعنا؟!.. لسنا أصحاباً ولسنا صديقين، أحب القصة، أحب المسرح، حلقة برنامج الأمس كانت جيدة، كانت جيدة جداً. تكذبين كثيراً!.. طبعاً، فأنا أكتب قصة. كما أنك مستمتع، منافق حقيقي، هش كالبسكويت الفاسد في المستودعات، ما الذي يجمعنا؟!.. لا ستسيغ الفتيات المتحررات. تحقيق صحفي جيد؟!.. لا بأس، به هذا ما يجمعنا!..

لا ، إنه المقهى الشعبي في منتصف البلد..وها قد وصلنا أخيراً.

تحرك خاطئ على الإيقاع

على ذلك الحلم ستقف طويلاً قبل أن تقرر فقط، في سلة الخيارات أبعد من طاقتها على التصديق، إذن أنت لم تتمرن على تقنيات البحث، هكذا إذن الأمر خطأ جيني!.. لم تهيئك الطبيعة على البحث عن خيارات الحلم المتعددة، هل ستصدق مثلاً أنك، بالرغم من كونك جثة، لا تخدش الكفن لشدة الخفة؟!.. ومع ذلك تقرر أن تمنح لغفوتك المنتزعة من فم التجارب الأشكال الهندسية التي تحب، إذن ستمنح هي هذه الغيبوبة على سبيل المثال شكل الأرض البور، بتصدعات لهاثها اليومي ستكون تلك الأرض واسعة جداً طوال الليل،وسيمر عليها هواء ثقيل من عوادم باصات النقل الداخلي، قبل أن تفتح عين واحدة ستسأل ما إذا كانت نائمة فعلاً!.. خاصةً أنها تجادل التفاصيل بزهو المنطقي المنتصر دوماً، ستستيقظ مبتلة بالعرق لتتفاجأ سراً بأنها متهمة بالنوم الثقيل تحت أزيز الرصاص، تفكر بأن للحياة طريقتها الممتازة في جعل رد الفعل يهرب من جلد الفعل، يرتدي عباءة أخرى بألوان الصدمة على الأغلب، يمشي بهدوء وسط حشد الموظفين في الصباح الباكر كي يثبت لها كم أن العيش سهل ومقزز بالوقت نفسه ويستمر طويلاً للأسف،الموت هو إيقاع اللحظة، ولا تسقط في عسل النوم إلا تحت القصف، تشرب قهوة الصباح على الشرفة وسط

الاشتباكات، لا يحلو لها الدوش الساخن إلا بعدمشاهدة وقائع المجزرة!.. ترغب بالتماهي مع الناس، تسقط مقتولةأمام نشرة الأخبار عدة مرات في اليوم، تشغل التلفزيون وتعد سراً خمس دقائق ثم تقع على الأرض، هذاالأمر الذي لم تنجح به بعد!..

تذهب إلى سوق الخضار ، تطلب كمياتإضافية من البندورة أكثر من حاجتها،لعل هذا يعدل الأحمر في المناخ. تريد أن تقول لنفسها شيئاً، ليس كل ما تعيشه هو الموت، تستدعي مهارة قديمة في تزييف علاماتها المدرسية!.. ليحصل عالمها المفترض على درجة عشرة، ثم تقوم بسلسلة من الأفعال كالتالي: تفرغ حذاءها من الرصاص الفارغ عند العتبة، تنفض من الحقيبة دماً مجهول الهوية علق من الحاجز ، ثم تحاول لمّ الطاقة التي فتحها الهاون في ظهرها، تفشل الفتاة مجدداً في طمر ما يحدث تحت الوسادة كعادتها،تدخل مدناً هانئة وتخرج من أخرى منكوبة تحت سقف الوطن.. ليس بهذه البساطة يا صديقتي ستركضين نحو أقرب مرآة لتطلبي مكالمةعاجلة مع الله، وسيجري الحديث التالي:

مهلاً، ليس هذا ما اتفقنا عليه، أنت تعلم أن لا حمل لي على هذا..

يصمت طويلاً، ويجيب: لماذا تعتقدين أنك مميزة فعلاً؟!.. (عن جد)..

تتذكر، قبل أن تصفع زجاج المرآة، رجلاً تافهاً كانت تحبه قال لها مثل هذا الكلام أيضاً، حبل رد الفعل الملتف حول الرقبة

يجرها إلى السلة الأولى، يحدث أن تكون حراً، ويحدث أن تختار هذيانك الخاص بملء إرادتك، فقط حين تكون الجثةستقول بملء الفم: حسناً، أوقفوا القتل، نريد بناء وطن لكل السوريين!.. تردد جثة أخرى: هذه الشعوبحرة يا سفلة؟!.. بينما تهمس جثة أخرى ..تعبت، توقفوا جميعاً عن طعني.

رد الفعل يخاتل ظلها خلف الستارة بينما تعد سلطة الخضار للموتى القادمين إلى البيت بعد قليل.

ستغلق الباب خلفها بإحكام من يحافظ على عورة الموت بعيداً عن أعين المتطفلين، ثم تلتحق بالأفواج من أول الساحة، ستجهد نفسها كي لا يفوتها اللهاث، ربما تتخيل أن للمدينة المزدحمة شكل لعبة المتاهة التي من طفولتها مع فارق أنها عملياً ليست مع ذرات الشتات، أو في الأحياء التي قتل معظم سكانها، ثم جاء النازحون ونظفوا البيوت من آثار الحريق، بل هي في مكان آخر طالما تشعر بثقل قدميها على الإسفلت، في متاهة طرق مسدودة لها شكل حجرة سيزيف ستعمد على تحدي قوانين السير، تقفز من رصيف إلى رصيف كقطيع أرانب برية متكامل،ستكون هي بشكل الغبار الطالع من تحت إبط الأسطورة كما تتمنى أن يذكرها العائدون من مدن أوروبا ذات يوم، وتتخيل المشهد رجالاً ونساءاً يحتفلون في المقاهي والحانات، تركض كي تأخذ من تحبهم في حضنها، تتخيل ذلك كلهبينما يسحلها الوقت من غرتها كأسيرة في هذا الكابوس النهاري، تضع كفها في جيب الفرضيات كعادة معيبة فعلاً تكررها من دون قصد، لو أن قناصاً واحداً يعتلي

سقف البيت في إحدى الضواحي المجاورة يصوّب نحو هؤلاء، يصطاد الرؤوس عشوائياً، يخطئ هدفه ويصيب الوقت، كيف اتفق أن لا يزرعوا قناصاً لكل هذا السيلالبشري؟!..

تبحث في الإنترنت، تفتح صفحة للتواصل الاجتماعي، وكخرقة علقت في المروحة تتابع صور المذابح، أخبار المعتقلين، وثغاء القطيع الفيسبوكي المتصاعد، كذلك تبحث عن آخر الدراسات العلمية التي تسمح لها أن تفقأ هذه الدمامل النفسية بلا أضرار جانبية تذكر، أن لا تصرخ متهمةً الجميع بالدعارة، ربما تأخذ دباً قطنياً أبيض وطاهراً كي تضربه على الحائط فترتاح، أن لا تسحب سائق التاكسي من سترته عبر النافذة، أو تتمتم بالشتائم كصلاة ندم، أن تشرب كحولهافي العتمة بصمت وامتنان الناجي من الموت، أن تقف تحت عامود الكهرباء لساعتينقبل أن تنضم للأصدقاء في السهرة، تقف بنصف بلل ونصف يباس كما لو كانت الخشبة التي رست هنا وحيدة تماماً...

عندما كنا حيوانات

حين كانت هذه الجغرافية نيئة، كانت الخرائط في القارورة لم تسكب بعد، وكنا وحيدين في هذا الفراغ، مجرد يتيمين بأرواح تتوق للتسكع فقط، البشرية التي خذلتنا سويةً ما يكفي ستين زمناً لمجرات متشظية في سماء غريبة، كما يحلو لنا أن نتخيل قبل أن تنهي أنت زجاجة النبيذ هي ذاتها لا تتغير، بشرية لا تنفع على الإطلاق، ولا تتقن حتى اجترار آلامها الجمعية، لذلك أرى أني أستعين بالحيوانات التي لطالما تبادلناها كشتائم غالية على القلب.

لكن عندما كنا، كنتُ العصفور الملون الذي ينقر تفاصيل علاقاته العاطفية على أنفك دون اكتراث وتغفر له. أنت السمكة باللون الواحد لا تحل بالماء أو التراب، وأنا عصفور عابث يسعد بالدود يتقلب بمرارة في بطنك الجميل. قصة الحيوان، لماذا لم تفكر بها على هذا النحو؟!.. حسناً، فهي حكاية تناسبك أكثر، أنت رجل قُذف إلى الثلج ليلاً، و كذلك امرأة حُبست في الظل.

حين تشبثت أنا بما تبقى من حشيش يابس كنت أشبه أي شيء اغتيل في الغابة ولم تسعه أكياس الصيادين، بينما كنت أنت التيس الذي انتحر في العتمة، لكن عدنا ثانيةً بعد أن حصد الجميع

حقول المرارة بصمت ورحلوا بالخيبة ذاتها، خرفان نلتف حول بعضنا بصوف الحنين، ننتظر بأسى جزار الوقت فقط، وهاهو جزار الخرفان الممتلئة بالذاكرة يدق باب حظيرة الحزن هذه ولا يرى أحداً، كيف حدث أن يفقدنا الحزن هذه المرة؟!.. لا أعلم.

ثم رأيتك تتمشى في زمن استوائي حار جداً، فجئت إليك سعداناً مراهقاًأقصقص على شعرك حكايتي مع غوريلا خارجة من كهف قريب، فكنت القرد الذي قلب المكان على رأسي، وهذا بالضبط ما ضيّع علي حكمة الأسد التي تدق بضراوة في قلبك، فمن كان في ذاك الزمن مثلنا؟!.. قرد يخلع الأقنعة كلها عن وجه أسد، حينها كان علي أن أعلم أنك لست من لحم عشيرتي فوق شجرة الضباب، ومجرد قرد صغير يطمع بجنسية ملك الغاب، سأتمهل أزمنة صحروابة حتى أعود إليك حمارة ناضجة تجرؤ على سؤالك: لماذا تحتاج إلى عرش أنت تملكه سلفاً؟!.. تحتاج إلى هذه السذاجة مع القهوة التي نحتسيها بهدوء غالباً، تحتاج أن أقول: أنت حبيبي ملك الغابات كلها، ولا أنتبه إلى الدموع التي وقعت على صحن فنجانك...

مع مواسم العنب كنا الأرانب التي شربت كثيراً من البيرة في جميع بارات الشام القديمة، تنظر . فلسفياً أقصد . في حق ممارسة الجنس بانتظام وكثرة، وعن أسبقية الكثرة على الانتظام، ترى العكس، أخالفك الرأي وهكذا... فهل انتبهت، أحواض العصر المرحة فارغة اليوم، وتنتظر عنب هذه اللحظة؟!..

ثم ها نحننعود إلى بيوتنا البعيدة، مجرد أرانب تنسى أين

وضعت ساعات اليد، كما نسيت أن عليها الإنجاب الآن.

في المكتب أشعلت أنت الضوء الخافت وبدأت تستمع إلى (شوبان) فعلاً حصان جدير بالسكينة يطرق بابه كلب يركض دون توقف، يحمل قلبه الأحمر القاني فوق سيقان عوجاء ويبكي أمامك بلا دموع، ينبح إليك دون نباح، لكنه يصمت فجأةً حين يراك تصفع الموسيقار الشهير ثم تفتح النافذة. وهاهي روحي تنتشر من نافذتك، قطيع كامل من الماعز البري على سفوح الغيم يمضغ من سم الكينا الخطأ ليس إلا.

كما حمار لم يتمكن من السقوط لا تفعل شيئاً سوى أن تقف في منتصف الطريق، هذه هي عادتك أيضاً، لكنك عدت أخيراً من زمن الطوفان فيلاً يمتلئ بتفاصيل السنجاب الذي ارتدى نظارات شمسية وهو يتحدث عن العمل والمغامرات الصغيرة تحت سقف المقهى الشعبي، فيلاً خشي أحد دبابيس العبث كما تفعل السناجب الخرقاء، وذهب يبعثر مياه المفقودين وهو في غاية الوحدة.

من أجاب على هاتفك الشخصي ولم يحول لك المكالمة عمداً هي أنا، القطة التي ذهبت تتلهى بكرات الآخرين تحت الأقدام الرسمية دون أن تكترث بجدول الشهر ومكالماتك الضرورية.

لكنك كنت سنجاباً أيضاً في هذه المرة لما فتحت الباب قبل أن يُقرع.

تتحدث بحماس عن قبعات طائرة فوق سريرك تنثر الحياة،وعن زورق ذهبي صغير يبحر بك بعيداً، حينها أصبحتُ

الزرافة وأنا أقلب المجلات على طاولتك، زرافة تفكر سراً بالبحار التي تلائم أكثر قارباً صُنع من الخريف مثلك.

اليوم أُخرج رقبتي وأنا مرتاحة الضمير من مدن المكاتب الرسمية، الرسائل القصيرة، الرياء الاجتماعي، وأوراق التعامل اليومي، حتى أنتظرك في جغرافية لم تنضج بعد إلى حين الشتاء القادم.. أنتظرك على هيئة أيل غريب عن المناخ يحمل إليك الألعاب التي حطّمها أطفال مجانين من كل أنحاء العالم...

ربما تجيء أنت على هيئة رجل المكعبات اليتيم!..

منطاد هائم أمام قمر في البرية

الرأس الذي هو منطاد، ولنقل إنه أصفر أو أزرق أو بألوان العلم الفنلندي، لن يسرع كما تعتقدون،إنه سيفعل يوماً ما وتنصرفون براحة ضمير إلى أعمالكم. ولك يا عزيزي أن تسأل كما أسأل نفسي في هذه اللحظة: ماذا تفعل الأعمال الكاملة لـ (الشابي) إلى جانب وسادتي منذ سنة،وربما أكثر؟!.. في الحقيقة، لا شيء. المهم أن رأساً كالذي أملكه هائم على وجهه،فيتعثر ويقع

في فخ الأوزون. كلكم تعرفون ذلك وأنا أيضاً بالتأكيد.. أمشي إلى الفخ بكل سعادة بتأثير الضباب الدخاني الذي يبقى معلقاً في الاجواء لأيام عدةرغم الكيمياء، هذه أنا أتحدى نظريات التلوث الموجودة على سطح العالم منذ قرون.

والقرون التي ظن معظمكم أنها محارم ورقية من حفلة جنس قام بها الملائكة فوق رأسي، هي ما أنطح بها كل شيء وثلاثةوعشرين راكباً في السرفيس من أجل مقعد فيه، ولو جفت دماؤكم لما تخليت عن هذه الدائرة، ليس حباً بالأمكنة، ربما العادة فقط، أو أن لا يمزق أحد كل هذا السكون الذي أظن أنه مقدس، ولو ركضتم جميعاً إلى فوق التلة، سأبقى متمددة على المنحدرات،أحلم بثور سماوي يثقب هذا الانتفاخ من خاصرته حتى يفاجئكم بالهروب عكس السير.

ومع السير أنا معكم: (كراجالسومرية في حدا نازل؟!..) يضربني سائق أزرق بهذه الحصاة في القلب وتجرح.

وفي القلب لن أُتعب نفسي. كل هذه اللغة فاسدة كما لو كانت (قطرميزات مكدوس) من السنة الماضية، وحتى لو صرخت باسمك في شوارع ريفية لن أساعد قلباً على ايجاده لغة تفسر له أنه وقع في الحمى، وكما حلاق الملك الحزين أحفر في الرياح اسمك فيجعلني أغشى من الضحك كما لو كنت تلك المعلمة الأمريكية في إحدى ضواحي نيوجيرسي التي تزوجت أفشل طالب عندها في الصف، اسمك الذي يضحكني وقعه، ارتديت من أجله حروفاً بيضاء، وعلى سبيل الهواية، رحت أسأل في قريتك البعيدة صاحب

الدكان : هل تعرف أين يقع بيت الكاتب المعروف فلان الفلاني؟!.. ثم لمحت حائطاً منهدماً. فقلت: ربما كان هو طفلاً يشبه إلى حد كبير القرود الصومالية، يسرق تفاحاً أخضر من بيوت الأغنياء ويتسلق حافة هذا الجدار.

الرأس الذي هو منطاد يفكر بالجلوس على الشبكة يومياً لأن ستين خنزيراً سيتعرقون بالقرب منه في الشارع، كما نفذ (التاتش) منذ أشهر، ولأني أشبه صديقي في الحاسوب، سأغتاظ حين أراه يضرب بأزرار أكثر من(shift) (Alt) ..

ماذا يخطر في بالك؟!.. قمراً فُقد في البرية، أو ما يخطر في بالك أيها الفضاء السافل، ولأنك مجرد أرقام وافتراضات عملية نجحت حتى الآن، لا تيأس مني، يوماً ما سأخبرك بما يخطر في بالي، وماذا كان يريد من الأخريات على سريري في غيابي، ولماذا يسحبني في كل مرة من قروني التي هي طاولة الملائكة المقلوبة أيضاً،ثم يخرج دمي ويعاين درجة غليانه فقط ثم يسلخ عني تلك الألوان جميعها، ولو ثقبت جميع الاتجاهات لما تأكدت إلى أين سأهرب منكم.

ماذا تريد هذه البيوت الأثرية في جزيرة من مراقبة منطاد؟!.. ولماذا تجلسون جميعاً وتقولون: أصفر، أزرق، أسود،أحمر، وخريفي أمام منطاد هائم، ومنفوخ بذاكرة الوديان؟!..

يداعبه مشمش طازج في المول

مانوع الموسيقى التي تسمعين عادةً؟!..

في مراهقةتفوح منها رائحة السكر المحروق كانت أذني سعيدة بتلك الأغاني التي يُحضرها لي صديق أكبر مني سناً، يهتف لي: وصلت عدة كاسيتات من الشام لمحمد منير،نسختك محفوظة في الدرج."جغرافيا" صف الثامن أسوأ كتاب تتصفحه فتاة تحب دروس التاريخ أكثر. بعد الساعة الخامسة لن يزجرني أحد إذا ما وضعت قدميّ في خفّاف يطير بي إلى الخارج. آه، تلك الوظائف،مازالت قادرة على جعلي أشعر كما لو كنت مجرمة حرب.

ليست من أغنية مفضلة يا عزيزي طالما أن صاحبها لا يزعق أو يختنق في خياشيمه.. فقط مامعنى هذا السؤال؟!.. المعنى الحقيقييطرحه أحدهم كي يكتشف شخصيتي مثلاً..

ما الذي يتغير، ومتى؟!.. معظم أصدقاء اليوم رجال فوق الثلاثين، لو صدقوا!.. الأنثى الوحيدة التي تثرثر معي ساعات طويلة على الهاتف لا تمت إلى عالم الكتاب بصلة، أجزم أنها ستقع مغشيةً من الضحك إذا ما تلوت على مسامعها قصيدة مابعد حداثوية واحدة!... لن أفعل، ليس بعدما ذُعرتْ واصفرّ وجهها من حلقة البحث المفروضة عليها عن (الوطن في شعر نزار قباني).

صديقتي الوحيدة تنظر في عيني، تمج سيجارتي من أجل

التوفير، وتسأل: متى أتغير؟!.. وهل سأتزوج قبل الثلاثين؟!..

كان يجب عليكِ أيتها الحمقاء أن تخرّبي هذه الجلسة اللطيفة.. عودي إلى سيرة صاحب الشركة التي تعملين بها، قلتِ إنه ينوي شراء كل المحاضر المتبقية في خان الشيح، وكم تكون نسبتكِ من الصفقة؟!...

حصتي من المغامرة كبيرة برفقة (منال) ذات الهم التجاري أينما حلت، كنت أجلس إلى جانبها حين قال لها مرة عاشق بارد: ما يثيرني فيكِ أنكِ تجمعين صفتين متناقضتين: جسداً جميلاً ناعماً كأنكِ قطة سيامية تسترخي من التجوال، وعقلاً قبيحاً يخش بالليرات كما لو كان ملكاً لتاجر جملة خمسيني في(الحريقة).

ذرفتُ دموعاً كثيرة من الضحك،وحاولتُ مسح الكحلة السائلة على خدي عدة مرات طوال طريق العودة إلى بيوتنا القريبة من بعضها رغم وجه عدم الاكتراث المصطنع..

اعترفي أنه كان رجلاً ذكياً رغم ثقل دمه.

وسأعترف لاحقاًبما تغير!.. سراويل الجينز صارت أوسع، ليست لأن تلك الأرحام تصرخ مطالبةً بتفعيل الخدمة فقط، بل لأنكِ أصبحتِ تهتمين بمشاعر الآخرين، الإحساس بالمسؤولية أقصد، أي أن تمتنعي عن السفر إلى طرطوس مع شاب التقيت به للتو.

هل تعلمين أنه يتوجب عليكِ ياحلوة دعم الكالسيوم منذ الآن،إنها السابعة والعشرون!.. هكذا تتجنبين أمراض هشاشة العظام في المستقبل،آه.. كما أن عملية حرق السعرات الحرارية، تلك التي تدعى بالأيض، تصبح أبطأ مع مرور السنين، ولابد أن تطوري فنون الصيد، إنهن فتيات أصغر منكِ سناً وخريجات العولمة بامتياز، ثم إني شخصياً لا أعتقد أنكِ تستطيعين كبح افتراسكِ للطعام، ليس بعد كل هذا الضغط العاطفي كل يوم!..ألهذا تقرأين كثيراً إذن؟!.. تضحك، هاتِ سيجارتي يا حيوانة!..

في (المول) كانت مؤخراتنا تدور بين الطوابق ونحن بالأسنان المكشوفة للمتسوقين.. الدفاتر الورقية، كنزات بألوان الربيع، وأثداء مبالغ في رفعها.. حتى يكاد يطردنا صاحب المحل لشدة ما عرض أمامنا من بيجامات..لم ابتعْ سوى بهجة اكتشاف حضارة الاستهلاك وجوارب..

منال الشريرة تهمس لي: هل ترين هذا الرجل هناك... مع زوجته تلك صاحبة الأكياس المنتفخة؟!..الليلة سأجعله ينام على الأريكة!..

تغمز له بعينين من حرير، وتطير بسلام إلى مملكة احتلامه السري.. بينما تثيرني فكرة أن تضربه زوجته بسببي أيضاً.

في الماضي لم يكن فنجان القهوة يكلف كل هذا الوقت، هو فنجان يليه فناجين، والجلي على من استطاع إليه سبيلاً.. فالفرار

مؤمن بحجة المحاضرة!..

هل أستطيع تجاهل هذه الفوضى في غرفتي وأتابع الكتابة الآن؟!..

بالله عليكِ، إنني الآن أشتري عبوات المنظفات بسرور..

بعثت إليه مرة رسالة إلى هاتفه النقال: أكتب إليك من ركام البارحة قصيدة غزل، الحب العريض المنكبين ذو سيارة اللاند كروز الذي ثرثرنا بأمره مع البوظة في حديقة كلية الطب، وشارع الحمراء، هذا الرجل (الفري) الشجاع، المثقف، وكيل ماركة عالمية في البلد، شاعر أو كاتب لافرق... لو يملك شركة عقارات أفضل بالطبع.. ربما مسرحي، عصبي، ويصرخ بوجه ممثل ناشئ.. رجل أعمال لديه مكاتب حوالات مالية حول العالم الذي سيخطفكِ من باب الحمام لأنكِ لاترضين ممارسة الجنس مع أحد بلا (دوش) مقدماً. اعتدت على المطالبة بالشموع العطرة.. وهذا لا (يحبّل) أحداً برأي منال!..نعم هذا الحب شُطب، خلص،انتهى، سكّر الغلق، بح، فص ملح وداب، راح، الله يرحمو!..

وحين كان حياً، يسكن في (الدويلعة) ويستأجر هذه السيارة كل يوم تقريباً، لم أعد أحبه، كاذب ابن عاهرة، معقّد نفسياً، ظننت أنه مسرحي، شحاذ، ويريد اقتراض المال مني.. هذا ما ينقصني..فقط لم أعد أحبه.

أكتب اليوم لأعيش. ولا تضحك منال لدعابات هذا الولد لأنها

(معلمةعربي) محترمة، ولن تخلع حذاءها الصيفي بعد اليوم لتعاقب شاباً يصفعها على هذا اللحم الغض. لا أفكر بالحب، اهتم بأن لا يكون سخيفاً ويحترم وقتي أكثر. تبحث منال عن مكتب تستأجره لتعليم الطلاب منهاج اللغة العربية (تعليم أساسي، وبكالوريا) بالفرعين الأدبي والعلمي.

المليونير الذي ترغبه الفتيات في سن العشرين، يختفي بعد سنة واحدة!.. هذه حقيقة، أما أنا فلم أعد أتمنى شيئاً..

ربما أن أنام ساعات إضافية، كما أن يُخفض أحدهم صوت التلفاز في الغرفة المجاورة.. هذه حقيقة أيضاً.

ما نوع الموسيقى المفضلة لديكِ الآن؟!.. يسأل أحدهم. كل شيء لا يصيبني بالصداع مع حديثك الشيق هذا!..

عدد السجائر يترك أثراً. تشير منال إلى السواد حول عينيها وتطفئ السيجارة. حسناً، أفضّل أن أريها ظلال التجارب القديمة.

تحذرني بقوة: اخرسي، واستخدمي خافي العيوب قبل الماكياج.

ثمة قصائد عن نساء كبيرات بالسن ونبيذ معتق، مشمش، تزم فمها، تضحك بفجور، إنها صعبة اللفظ، أقرصها من فخذها، تشهق.. انتبهي لن يصدق أنها فتاة!..تشتم، تضربني على كتفي، مووووش. أشد لها شعرها: يا متخلفة، هذه أشهر قصائد محمود درويش. خريجة قسم اللغة العربية . كلية الآداب:

"على هذه الأرض ما يستحق الحياة / نهاية أيلول / سيدة تدخل الأربعين بكامل مشمشها..".

نستمر بالضحك ثم نقع على الأرض. بعد لحظات من هذه الهستيريا تدك القميص في بنطالها الأسود. تنظر إلي بجدية وتقول: في الطريق إلى الكونسروة بعد الثلاثين.

أرغب بأن أقول لها شيئاً يبعث على التفاؤل في نفسها:

لا ، مازلت أراه المشمش الأصفر الجميل ..

مسمار في الريح

اليوم عُلّق على خشبة، ومنذ يومين فقط كان يغسل يديه بالصابون البلدي الممتاز، يتأمل الثقوب على حائط الحوش، يقول في سره: فتحوا رئة المطر على بيتنا، لا بأس!..

في اليوم التالي خطفوا ثوب أمهالمبرقع بالأحمر والأسود عن حبل الغسيل، جلست المرأة العجوز تنشج كما طفل جريح وجلس هو بالقرب منها يفكر بأنهم ربما يكرهونالثياب الفولكلورية!.. وما علينا!..

في دكانه مر عليه رجال القرية، بصقوا في وجهه: يغتصبون نساءنا ويقطعون رزقك ورزقنا ولا تحمل السلاح؟!.. بصق هو في وجههم: أنتم تبتاعون من القرية المجاورة يا أولاد العم.

جاء ابنه ذو العشرة أعوام باكياً وممتلئاً بمخاط المرحلة، أخبره أن ثمة رجلاً قفز عن دبابته ومزق الكرة!.. ركض إلى بيته، حفر قليلاً تحت بلاط الغرفة، أخرج بارودة صدئةثم قتل الرجل بالقرب من دبابته بعدها علقه رجال القرية على خشبة، بينما كان يجوب كل الأماكن في البلدة الصغيرة، مرةً وقف فوق فراش ابن عمه وهو يتحدث لزوجته: هذا الرجل أحمق جر المصائب إلى بيوتنا.. بكى بشدة، قلع له عيناً ووضعها بالقرب من

الفراش ثم رحل..

في اجتماع وجهاء القرية، لم يدعه أحد بالرغم من أنه كان يجلس إلى جانب الشيخ تماماً، همهموا بكلام غير واضح ثم اتفقوا على تحكيم العقل، شعر بأنه يصفع وبأحد ما يُخلعه ملابسه دفعة واحدة،وضع يده على مجمر القهوة ورحل أيضاً.

وجد صورته بلا يد أو عين على شاشات التلفزيون، وكمشهد قصير تناقله الشباب في هواتفهم، وعلى شريط الأخبار اللاهب كانت أعضاؤه كلها تمر أمامه، لم يحتمل هذا الانتهاك لجسده طالب بصوت عال للمرة الأولى أثناء تجواله أن يحترموا خصوصيته كرجل تعبت أمه في تربيته!.. لكنه أصيب بالحرج الشديد حين سمع من أحدهم بأن ثمةناشطاً على الإنترنت مضغ عضوه علناً وبشراسةبالغة!..فقرر الاختباء عن أعين الجميع، بعد عدة أشهر فتح قبره، خرج فقطليتأمل الخشبة،كانت قد تعرضت للنهش هي الأخرى!..

النوم عاشق مغدور

تركن رأسها على زجاج الحافلة، بينما تتجول عيناهافي أزقة الشام وأمام واجهات المحلات الفخمة في "القصاع"،تفكر كيف ستخبر أهلها عنتركها العمللللتو!.. فهي منذ أن بدأت بوظيفة "كاشير" في مطعم "سناك" لم تقبض راتباً واحداً، وعلى الرغم من هذه المشكلة التي ستعكر مزاجها غالباً طيلة فترة الصيف، تحلم أنها أصبحت طائراً، تتخيل نفسها تطير مع حقيبة الظهر الخضراء، بحمولتها اليومية المعتادة: حقيبة الماكياج ورواية "باولو كويلو" التي استعارتها من قريبتها، وكنزة قطنيةمكشوفة من الأعلى لا يُسمح لهابارتدائها في الحارة المحافظة التي تعيش فيها،هذه الكنزةبالذات تكويها كل صباح وتضعها بعناية بالغة في كيس يحمل اسم أحد الماركات العالمية، تحسباً لموعد مفاجئ مع الرجل الذي تحبه..

ولماذا لا أطير، هذه طريقة تخولني للخروج من البيت والتجول في كل مكان، حتى دون أن أدفع أجرة المواصلات!...

كانت قد قررتسراً قبل أن تصعد الباص، أن لا تخبر أحداً أنها تركت الوظيفة،لكن الزمور المباغت الذي أطلقه الباصشتت خطتها فيالتوغل أكثربفكرة التحليق،وفقدت حلمها النهاري

هذامرة واحدة!..

رومانسية كهذه لن تكون فاعلة بعد دقيقتين منذ الآن، تقول لنفسها، ثم ترفع الحقيبة الكبيرة من بين قدميها، وتبدأ بالبحث عن أشياء تشغل بالها قليلاً، تُخرج مجلة فنية و تقلب بها، يستوقفها استطلاع للرأي: من هو الرجل المثالي؟!..

تفكر بالرجال دفعة واحدة، حسناً.. ما هذا السؤال التافه!.. فكرت أن لا يكون الرجل رجلاًمثلاً..أن يكون إنساناً ربما، ألا يكون الجزدان الممتلئ مفعماً بالرجولة أيضاً، على الأقلفي المواقف الصعبة، كهذه الحالة، لماذا لا يصبح الحظ الجيد كل يوم رجلاً يحبها ويقدرها جيداً.. عمل ذهبي هو رجل مثالي بالنسبة لها الآن، تمادت أكثر بالموضوع، إلى أن خطر لهاأن أمها أحياناً هي الرجل المفضل بالنسبة لها!.. ثم تذكرت بنت خالتها الصحفية وقررت أن تكتب شيئاً حول الموضوع خاصةً أن هذه الجولة الطويلة بالباص العمومي لن توصلهاإلى بيتها قبل ساعة على الأقل، كتبت على دفتر صغير تستخدمه عادةً لتدوين إعلانات الوظائف، تذكرت نصيحة قريبتها بالكتابة كدواءممتاز لحالات الاكتئاب، فجأةً كتبت على رأس الصفحة: إلى مجلة "سحر" المحترمة، النوم هو رجلي المفضل!.. ثم توقفت، خطر لها وهي تنظر من النافذة، أن تقوم بتطبيق اقتراحات قريبتها عملياً، بالرغم من أنها لطالما اعتقدت أن مثل هذه "الفزلكات" لا جدوى منها، قفز في مخيلتها السرير والشرشف الأزرق ورائحة وسادتها ثم تابعت:

النوم هو الرجل الوحيد الذي يعلم أني سأصمت للأبد إذا ما

سمعني إلى النهاية..رجلي الوحيد يصدق أن السيارات هي التي تخشى مني وليس العكس،رجل لا يصنع من قطرات دمي شبكة وعناكب، يغلق الباب وراءه بهدوء ويغزل رمشاً على رمش كما أغنية سعيدة.. أقول للنوم إني لم أكذب على أحد، وإني أمد ذراعي دائماً للحب فيأخذ رأسي إلى رقبته.. رجلي الوحيد يسمح لي بالعبور من جسده كمسيح مبهم على الله، النوم هو الرجل الوحيد الذي صدق أني رأيت قرداً بنياً في شجرة التوت..وأني طيبة لكن لا أحسن التصرف فقط، لكنه يطلب مني أن أفعل كما فعل القرد...، يعلم النوم أني لا أتنفس جيداً في النهار فيطلق لي رئة حرة للطيران، ويصدق أيضاً أني لا أثمل بل أصطنع ذلك، وأنيرأيت أصابعه تنقض على فخذ صديقتي، وأني لم أفتعل دعابة حين هددت بالتهام عينيه الجميلتين من قبره، رجلي الوحيد يشهد أني أكلت عينيه حقاً وهو حي ويلهث.. النومرجل أعشقه ويستحق ذلك،يتمنى أن لا أذهب إلى القبور لوحدي فجراً، وهو متأكد مثلي أنهم يعيشون،لكنه يتلعثم حين أسأله عن الموتى الحقيقيين، النوم رجلشديد البأس يعرف أن الألم في قلبي له صدى رتيب وممل، لذلك لا يمل من أوامر جسديحتى لو قفز فوقه دون أن ينظف أسنانه وبثياب السهرة الخائبة، ولأن جسدي وقحاً للغاية سيبصق في وجه النوم لأنه لم ينظف أسنانه، هو ثمسيرفض المعاشرة الزوجية!..النوم رجلي الوحيديعلم أني أحتاج إلى الارتماء بين ذراعيه كل الوقت، ومع ذلك أتركه جثة باردة في السرير وألحق رجلاً آخر بين السيارات السريعة..

بعد ساعة تقريباً، وصلت إلى آخر الخط، بالقرب من بيتها،

هبطت من الباص ثممشت تلك الخطوات المعتادة من آخر الشارع إلى البيت وهي تتمتم: تركت العمل، نعم تركت عملي، والآن دعوني أنام فقط...



المكان يصلح للحب بالرغم من اليأس العام هذا ما أفكر به حين تطرح هذا السؤال بشكل مفاجئ عادةً.. لو وضعت ستارة ذهبية هناك ،وسمكة خضراء في إناء على شكل حوت يبتسم ..هذا يتلائم مع الأرض التي فرشتها بالحب أبعد هذه الطاولات جانباً وضع المزيد من الوسائد الوثيرة ...، افتح حقيبة الخيبات الثقيلة وطلع طيف تلك الأنثى ، هكذا تنتقم مرة واحدة من خيبة واحدة في كأس واحد واحتمالات كثيرة للحلم ... أنت الذي ستقضي ليلتك وحيداً على كرسي واحد في بار فرغ للتو من رواده ..

الإقتراحات التي لم أشاركه بها الصديق الذي يظن أنه فارس الحركة الرومانطيقية في أوروبا القرن التاسع عشر ينافسه وودز ورث في قصائد لا تقوى على الإطاحة بقلبه مهما حصل ..